الفصل الدراسي الأول

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

الرَّحْمَةُ

الرَّحْمَةُ كَلِمَةٌ صَغيرَةٌ... وَلكِنْ بَيْنَ لَفْظِها وَمَعْناها مِثْلُ ما بَيْنَ الشَّمْسِ في مَنْظَرِها، وَالشَّمْسِ في حَقيقَتِها. أَيُّها الرَّجُلُ السَّعيدُ، كُنْ رَحيماً، أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ، لِيَكُنْ قَلْبُكَ الرَّحْمَةَ بِعَيْنِها، فَلَوْ تَراحَمَ النّاسُ لَما كانَ بَيْنَهُمْ جائِعٌ وَلا مَغْبونٌ وَلا مَهْضومٌ، وَلَمَحَتِ الرَّحْمَةُ الشَّقاءَ مِنَ المُجْتَمَعِ كَما يَمْحو لِسانُ الصُّبْحِ مِدادَ الظَّلامِ.

أَيُّها الإِنْسانُ، ارْحَمِ الأَرْمَلَةَ الَّتي ماتَ عَنْها زَوْجُها، وَلَمْ يَتْرُكْ لَها غَيْرَ صِبْيَةٍ صِغارٍ، وَدُموعٍ غِزارٍ، ارْحَمْها قَبْلَ أَنْ يَنالَ اليَأْسُ مِنْها، وَيَعْبَثَ الهَمُّ بِقَلْبِها فَتُؤْثِرَ المَوْتَ عَلى الحَياةِ. ارْحَمِ الزَّوْجَةَ أُمَّ وَلَدِكَ، وَزَهْرَةَ بَيْتِكَ وَمِرْآةَ نَفْسِكَ؛ لِأَنَّها ضَعيفَةٌ، وَلِأَنَّ اللهَ قَدْ وَكَلَ أَمْرَها إِلَيْكَ. ارْحَمْ وَلَدَكَ، وَأَحْسِنِ القِيامَ عَلى تَرْبِيَتِهِ؛ فَإِنَّكَ إِلّا تَفْعَلْ قَتَلْتَهُ، أَوْ أَشْقَيْتَهُ؛ فَكُنْتَ أَظْلَمَ الظّالِمينَ.

ارْحَمِ الجاهِلَ، لا تَتَحَيَّنْ فُرْصَةَ عَجْزِهِ عَنِ الانْتِصافِ لِنَفْسِهِ؛ فَتَجْمَعَ عَلَيْهِ بَيْنَ الجَهْلِ وَالظُّلْمِ؛ لِيَكونَ مِنَ الخاسِرينَ. ارْحَمِ الحَيَوانَ؛ لِأَنَّهُ يُحِسُّ كَما تُحِسُّ، وَيَتَأَلَّمُ كَما تَتَأَلَّمُ، وَيَبْكي بِغَيْرِ دُموعٍ، وَيَتَوَجَّعُ وَلا يَكادُ يُبينُ... ارْحَمِ الطَّيْرَ، لا تَحْبِسْها في أَقْفاصِها، وَدَعْها تَهيمُ في فَضائِها حَيْثُ تَشاءُ، وَتَقَعُ حَيْثُ يَطيبُ لَها التَّغْريدُ.

أَيُّها السُّعَداءُ، أَحْسِنوا إِلى البائِسينَ وَالفُقَراءِ، وَامْسَحوا دُموعَ الأَشْقياءِ، وَارْحَموا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ.

(النَّظَراتُ وَالعَبَراتُ/ المَنْفَلوطِيُّ) بِتَصَرُّفٍ.

الدَّرْسُ الثّاني

مَساجِدُ عَكّا شاهِدَةٌ عَلى عُروبَتِها

(المُؤَلِّفونَ)

عَكّا مَدينَةٌ فِلَسْطينِيَّةٌ عَريقَةٌ مُغْرِقَةٌ في القِدَمِ، تَقَعُ في شَمالِ فِلَسْطينَ عَلى ساحِلِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ، وَتَرْوي مَساجِدُها الشّامِخَةُ سيرَتَها الَّتي ظَلَّتْ مُزْدَهِرَةً عَلى فَتَراتٍ إِسْلامِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ بِفَضْلِ مَوْقِعِها وَمينائِها وَحَصانَةِ أَسْوارِها؛ إِذْ شَهِدَتِ ازْدِهاراً عُمْرانِيّاً، وَبِناءَ عِدَّةِ مَساجِدَ بَعْدَما قَرَّرَ الخَليفَةُ الأُمَوِيُّ مُعاوِيَةُ بْنُ أَبي سُفْيانَ تَحْويلَها إِلى دارِ صِناعَةٍ وَحَوْضٍ لِبِناءِ السُّفُنِ .

وَقَدْ وَضَعَتِ النَّكْبَةُ- الَّتي وَقَعَتْ عامَ ١٩٤٨م- حَدّاً لِازْدِهارِ المَدينَةِ بَعْدَ احْتِلالِها، لَكِنَّ مَساجِدَها الكَثيرَةَ تَحْفَظُ مَكانَتَها التّاريخِيَّةَ، وَتَشْهَدُ عَلى عَراقَتِها وَمَرْكَزِيَّتِها، وَتَصونُ هُوِيَّتَها العَرَبِيَّةَ الإِسْلامِيَّةَ. وَمِنْ أَهَمِّ مَساجِدِها: جامِعُ الجَزّارِ الَّذي يَقِفُ شامِخاً حارِساً لِلْمَدينَةِ وَهُوِيَّتِها، وَيُعْطي المَدينَةَ رَوْنَقاً وَجَمالاً. بَناهُ والي المَدينَةِ أَحْمَدُ باشا الجَزّارُ في الحِقْبَةِ العُثْمانِيَّةِ المُتَأَخِّرَةِ، وَيُحيطُ بِهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الغُرَفِ اسْتُخْدِمَتْ مَأْوًى لِطُلّابِ العِلْمِ، وَمَدْرَسَةً سُمِّيَتْ بِالمَدْرَسَةِ الأَحْمَدِيَّةِ، وَفي ساحَتِهِ ضَريحُ الجَزّارِ.

وَمَسْجِدُ الزَّيْتونَةِ سُمِّيَ بِهذا الاسْمِ تَيَمُّناً بِمَسْجِدِ الزَّيْتونَةِ في القَيْرَوانِ، وَهُوَ مِنْ أَقْدَمِ المَساجِدِ، وَتَتَوَسَّطُ باحَتَهُ نافورَةٌ جَميلَةٌ.

أَمّا مَسْجِدُ الميناءِ فَهُوَ مِنْ أَوائِلِ دورِ العِبادَةِ في المَدينَةِ، وَيقومُ بِمُحاذاةِ ساحِلِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ، وَيُشْبِهُ هذا المَسْجِدُ مَسْجِدَ الجَزّارِ في تَصْميمِهِ الخارِجِيِّ وَالدّاخِلِيِّ إِلى حَدٍّ ما، بَيْنما بُنِيَ مَسْجِدُ البُرْجِ عَلى الأَسْوارِ العِمْلاقَةِ لِلْمَدينَةِ، وَيُسْتَخْدَمُ مَدْرَسَةً لِتَحْفيظِ القُرآنِ الكَريمِ، وَأُعيدَ فَتْحُهُ مُجَدَّداً أَمامَ المُصَلّينَ.

وَكانَ الاحْتِلالُ الصِّهْيونِيُّ قَدْ أَغْلَقَ بَعْضَ مَساجِدِ المَدينَةِ لِسَنَواتٍ طويلَةٍ، وَلكِنَّ نِضالَ أَهْلِ عَكّا العَنيدَ وَالمُتَواصِلَ أَجْبَرَ الاحْتِلالَ عَلى إِعادَةِ فَتْحِ بَعْضِها، وَفي الآوِنَةِ الأَخيرَةِ حاوَلَ الاحْتِلالُ الصِّهْيونِيُّ وَلا يَزالُ يُحاوِلُ مَنْعَ الأَذانِ في مَساجِدِ المَدينَةِ وَباقي المُدُنِ الفِلَسْطينِيَّةِ المُحْتَلَّةِ، وَبِذلِكَ يُريدونَ أَنْ يُطْفِئوا نورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ، وَلكِنْ أَنّى يَكونُ ذلِكَ؟ فَاللهُ مُتِمُّ نورِهِ، وَلَنْ تَسْكُتَ المَآذِنُ أَبداً، وَسَيَبْقى صَوْتُها يَصْدَحُ مُجَلْجِلاً في عَنانِ السَّماءِ ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ بِإِذْنِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

الدَّرْسُ الثّالِثُ

لَيْلَةٌ ظَلْماءُ

(المُؤَلِّفونَ)

في قَرْيَةٍ وادِعَةٍ مِنْ قُرى فِلَسْطينَ الأَبِيَّةِ، تَعيشُ أُسْرَةٌ فِلَسْطينِيَّةٌ عيشَةً مِلْؤُها الحُبُّ وَالبَساطَةُ، كَبَساطَةِ أَبْناءِ الشَّعْبِ الفِلَسْطينِيِّ، يَكِدُّ فيها رَبُّ الأُسْرَةِ وَيَتْعَبُ؛ كَيْ يُوَفِّرَ لُقْمَةَ العَيْشِ لِأُسْرَتِهِ، وَيُؤَمِّنَ لَهُمْ مُسْتَقْبَلاً واعِداً... فَيَنْهَضُ كُلَّ يَوْمٍ مَعَ خُيوطِ الفَجْرِ، مُتَنَفِّساً عَبَقَ الوَطَنِ، وَمُتَعَطِّراً بِعَبيرِ تُرابِهِ.. ثُمَّ يَعودُ في المَساءِ مُتَّشِحاً بِقَطَراتِ العَرَقِ اللّامِعَةِ عَلى جَبينِهِ الوَضّاءِ، تَرْمُقُها زَوْجَتُهُ وَأَبناؤُهُ، وَيَرَوْنَ فيها أَمَلاً لِعَيْشٍ كَريمٍ، وَمُسْتَقْبَلٍ واعِدٍ.

وَفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي فِلَسْطينَ المُمْطِرَةِ المُظْلِمَةِ – وَبَعْدَ ساعاتٍ مِنَ السَّمَرِ عَلى أَحاديثِ الأَمَلِ الواعِدِ- خَلَدَتِ الأُسْرَةُ إِلى النَّوْمِ... نامَتْ وَهِيَ تَحْلُمُ بِهذا الوَطَنِ.. مَتى سَيَبْزُغُ فَجْرُهُ، وَتَسْطَعُ شَمْسُهُ في الأُفُقِ الرَّحْبِ، ناشِرَةً أَحْلامَها عَلى قُلوبِ الأَهْلِ وَالأَحِبَّةِ؟ طَرَقاتٌ شَديدَةٌ عَلى بابِ البَيْتِ، وَرَكَلاتٌ مُتَتابِعَةٌ... هَبَّ الأَبُ مِنْ نَوْمِهِ فَزِعاً... ضَجَّتِ الأَصواتُ الصّاخِبَةُ في أُذُنَيْهِ: افْتَحِ البابَ... جَيْشٌ... افْتَحْ... هَمَسَ في أُذُنِ زَوْجَتِهِ: انْهَضي بِسُرْعَةٍ... جَيْشُ الاحْتِلالِ يُحاصِرُ البَيْتَ... هَيّا أَيْقِظي الأَوْلادَ وَالبَناتِ... وَكوني هادِئَةً... يَسْتَمِرُّ الطَّرْقُ بِقُوَّةٍ... يَرُدُّ الأَبُ: انْتَظِروا لَحْظَةً... ها قَدْ أَتَيْتُ... فَتَحَ البابَ... عَشراتُ الجُنودِ انْدَفَعوا إِلَيْهِ كَالوُحوشِ... بنادِقُهُمْ مُصَوَّبَةٌ نَحْوَ الصُّدورِ وَالرُّؤوسِ كَأَنَّهُمْ في ساحَةِ حَرْبٍ حَقيقِيَّةٍ: هاتِ الهُوِيَّةَ.. ماذا تُريدونَ؟ هَمّوا بِالدُّخولِ.. صَرَخَ: في البَيْتِ نِساءٌ وَأَطْفالٌ صِغارٌ... اخْرُجوا جَميعاً... أَنْتُمْ مُخَرِّبونَ صَرَخَ جُنْدِيٌّ.. رَدّ عَلَيْهِمُ الأَبُ: نَحْنُ نَعيشُ عَلى أَرْضِنا وَفي بَيْتِنا، وَلَسْنا مُخَرِّبينَ... اقْتَحَمَ الجُنودُ البَيْتَ... صَرَخَتِ الأُمُّ في وُجوهِهِمْ: انْصَرِفوا من هُنا... جُندِيٌّ وَقِحٌ... دَفَعَها... فَوَقَعَتْ أَرْضاً... صَرَخَ الأَوْلادُ الصِّغارُ وَالبَناتُ... وَتَعالَتِ الأَصْواتُ... وَقَفوا مُجْبَرينَ خارِجَ البَيْتِ تَحْتَ زَخّاتِ المَطَرِ... وَالبَرْدُ يَلْفَحُ وُجوهَهُمْ... تَصْطَكُّ أَسْنانُهُمْ، وَتَتَراقَصُ أَرْجُلُهُمْ... صاحَ الضّابِطُ: أَيْنَ صامِدٌ؟ ها أَنَذا... انْتَزَعوه مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ.. طَرَحوهُ أَرْضاً... وَضَعوا القُيودَ البِلاسْتيكِيَّةَ (الكَلَبْشاتِ) حَوْلَ مِعْصَمَيْهِ... والعَصْبَةُ البَيْضاءُ ذاتُ الخُطوطِ الزَّرْقاءِ تَحْجِبُ النُّورَ عَنْ عَيْنَيْهِ... ماذا تُريدونَ مِنْ وَلَدي؟ صَرَخَتِ الأُمُّ: اتْرُكوهُ... وَاقْتَرَبَتْ تُريدُ تَخْليصَهُ مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمُ القاسِيَةِ.. هَيّا... ابْتَعِدي... وَدَفَعَها جُنْدِيٌّ آخَرُ... أَمْسَكوا بِيَدَيِ الابْنِ وَخَرَجوا مُهَرْوِلينَ... صامِدُ، لا تَخَفْ يا بُنَيَّ أَنْتَ رَجُلٌ... تَمالَكَتِ الأُمُّ نَفْسَها، وَحَبَسَتْ دَمْعَها: مَعَكَ اللهُ يا وَلَدي... مَعَ السَّلامَةِ يا حَبيبي... اللّهُمَّ انْتَقِمْ مِنْهُمْ... خَفَتَ الصَّوْتُ شَيْئاً فَشَيْئاً... مَعَ قَطَراتِ المَطَرِ المُتَعَرِّجَةِ عَلى أَضواءِ الشَّوارِعِ ...غابَ خَيالُهُمْ... رَمَقَتِ الأُمُّ رَأْسَ صامِدٍ مَرْفوعاً عالِياً مِنْ بَيْنِ خُشُبِ أَجْسامِهِمْ... اصْبِري يا أُمَّ صامِدٍ، قالَ

الزّوجُ:... خُلِقَ السِّجْنُ لِلرِّجالِ... سَيَعودُ بَطَلاً بِإِذْنِ اللهِ... وَبابُ السِّجْنِ لَنْ يُغْلَقَ عَلى أَحَدٍ... حَفِظَكَ الله وَحَماكَ.

رَجَعَتِ الأُسْرَةُ إِلى البَيْتِ، لا حَوْلَ لَها وَلا قُوَّةَ... مَنْظَرٌ مُؤْلِمٌ... خَليطٌ مِنَ المَوادِّ الغِذائِيَّةِ: الطَّحينُ مَعَ الزَّيْتِ، وَالأُرُزُّ مع العَدَسِ وَالقَمْحِ.... تَكْسيرٌ لِلنَّوافِذِ وَأَثاثِ البَيْتِ... مَلابِسُ مُبَعْثَرَةٌ عَلى الأَرْضِ.. قالَتِ الأُمُّ: حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ... وَقَفَ الأَبُ، وَجالَ بِنَظَرِهِ في أَرْجاءِ المَنْزِلِ وَلِسانُ حالِهِ يَقولُ: سَتعودُ إِلى جامِعَتِكَ بِإِذْنِ اللهِ... لَنْ تَكْسِروا إِرادَتَنا... هُنا باقونَ ما بَقِيَ الزَّعْتَرُ وَالزَّيْتونُ.

الدَّرْسُ الرَّابِعُ

وَداعُ أَخي

أَنْهى أَخي سَعيدٌ دِراسَتَهُ الثّانَوِيَّةَ، فَقَرَّرَ وَالِدي أَنْ يُلْحِقَهُ بِجامِعَةٍ خارِجَ البِلادِ؛ لِيَدْرُسَ الطِّبَّ وَيَتَخَصَّصَ فيهِ؛ فَفَرِحْنا كَثيراً، وَلَكِنَّ فَرْحَتَنا كانَتْ مَمْزوجَةً بِشَيْءٍ مِنَ الحُزْنِ؛ إِذْ تَسَلَّلَتْ صورَةُ الوَداعِ إِلَيْنا.

وَأَخَذَتِ العائِلَةُ تُرَتِّبُ لِسَفَرِ أَخي، حَيْثُ اسْتَغْرَقَتِ التَّرْتيباتُ أُسْبوعاً؛ فَكانَ وَالِدي وَأَخي يَذْهَبانِ يَوْمِيّاً إِلى الدَّوائِرِ الحُكومِيَّةِ، بَيْنَما انْهَمَكَتْ والِدَتي بِتَحْضيرِ مَلابِسِ أَخي، وَتَرْتيبِها في الحَقيبَةِ.

وَمِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تَجْتَمِعَ العائِلَةُ في بَيْتِنا لَيْلَةَ السَّفَرِ؛ لِوَداعِ أَخي، وَأَذْكُرُ أَنَّني ظَلَلْتُ طَوالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ذاهِلاً عَمَّنْ حَوْلي، لا أَرى أَمامي سِوى أَخي، أُحَدِّقُ فيهِ، وَأُلازِمُهُ وَكَأَنَّني أُشاهِدُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَلَمْ أَذُقْ لِلنَّوْمِ طَعْماً في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَلْ بَقيتُ أَتَقَلَّبُ في فِراشي، وَعَيْنايَ لا تُفارِقانِ سَريرَ أَخي الحَبيبِ، إِلى أَنِ انْشَقَّ الفَجْرُ، وَبَدَّدَ ظَلامَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الحالِكَةِ الطَّويلَةِ.

نَهَضْتُ باكِراً لِأُشاهِدَ أَخي مَرَّةً أُخْرى، وَأُحَدِّثَهُ، إِذْ كانَ مَوْعِدُ إِقْلاعِ الطّائِرَةِ السّاعَةَ التّاسِعَةَ صَباحاً، وَسُرْعانَ ما أَحْضَرَ والِدي السَّيّارَةَ، فَأَخَذْتُ مَقْعَدي فيها قُرْبَ سَعيدٍ، وَكُنْتُ أُخْفي عَنْهُ بِجَهْدٍ كُلَّ تَأَثُّرٍ بادٍ عَلى وَجْهي، وَرُحْتُ أُحادِثُهُ، وأَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يُراسِلَنا، وَيُخْبِرَنا عَنْ أَحْوالِهِ في الجامِعَةِ.

وَمَرَّ الوَقْتُ سَريعاً، فَتَرَجَّلْنا مِنَ السَّيّارَةِ عِنْدَ مَدْخَلِ المَطارِ، وَالْتَفَتُّ فَإِذا بِالسَّيّاراتِ تَمْلأُ السّاحَةَ الكُبْرى، وَقَدْ وَقَفَتْ بَيْنَها حافِلاتٌ لِنَقْلِ رُكّابِ الطّائِراتِ.

دَخَلْنا بَهْوَ المَطارِ وَوَقَفْنا نَنْتَظِرُ، وَذَهَبَ والِدي وَأَخي لِإِتْمامِ مُعامَلاتِ السَّفَرِ، أَمّا أَنا فَقَدْ وَقَفْتُ حائِراً إِلى أَيْنَ أَنْظُرُ؟ فالبِناءُ ضَخْمٌ جَميلٌ، وَهُناكَ أُناسٌ كَثيرونَ يَروحونَ وَيَجيئونَ، مِنْهُمْ مَنْ كانَ يَحْمِلُ حَقائِبَ سَفَرٍ، يَدْخُلُ بِها إِلى غُرَفٍ صَغيرَةٍ، وَقَدْ عَرَفْتُ مِنَ اللّافِتاتِ الَّتي فَوْقَها أَنَّها إِداراتُ شَرِكاتِ الطَّيَرانِ.

وَفيما كُنْتُ أَنْظُرُ إِلى السّاعَةِ الكُبْرى المُثَبَّتَةِ في صَدْرِ القاعَةِ، أَحْسَسْتُ بيدِ والِدي تَضْغَطُ عَلى كَتِفي، فَوَقَفْتُ لِأَرى سَعيداً يَنْظُرُ إِلَيَّ بِعَيْنٍ جامِدَةٍ، تُخْفي وَراءَها التَّأَثُّرَ، وَأَدْرَكَ والِدي حَيْرَتَنا، فَقالَ: هَيّا لَقَدْ حانَ الوَقْتُ؛ فَعانَقْتُ أخي مُتَمَنّيا لَهُ السَّلامَةَ والتَّوْفيقَ.

وَدَّعَ أَخي أَفْرادَ العائِلَةِ واحِداً واحِداً، ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَدْخُلُ وَحْدَهُ مِنْ بابِ المُسافِرينَ. أَمّا نَحْنُ فَقَدْ هُرِعْنا جَميعاً إِلى الشُّرْفَةِ الكُبْرى، نُطِلُّ مِنْها مُنْتَظِرينَ خُروجَهُ مَعَ حَقيبَتِهِ.

وَرَأَيْناهُ مُتَّجِهاً إِلى الطّائِرَةِ، وَهُوَ يُبادِلُنا التَّحِيَّةَ، مُلَوِّحاً بِيَدِهِ، وَما زِلْنا نَرْمُقُهُ، حَتّى غابَ داخِلَ ذلِكَ الجِسْمِ الكَبيرِ الجاثِمِ عَلى مِساحَةٍ واسِعَةٍ مِنَ الأَرْضِ.

ولَمْ أَتَمالَكْ نَفْسي، فانْهَمَرَتْ عَيْنايَ بالدُّموعِ عِنْدما أَخَذَ ذلِكَ الجِسْمُ يَتَحَرَّكُ، وَيَرْتَفِعُ عالِياً، وَأَنا أَنْظُرُ إِلَيهِ حَتّى أَصْبَحَ نُقْطَةً صَغيرَةً في الأُفُقِ، عَنْدَئِذٍ الْتَفَتُّ إِلى والِدي، فَإِذا بِهِ يُحاوِلُ إِخْفاءَ دَمْعَةٍ حائِرَةٍ بَدَتْ في مُقْلَتَيْهِ.

(الجَديدُ في القِراءَةِ العَرَبِيَّةِ، خَليلُ السَّكاكيني)

الدَّرْسُ الخامِسُ

بُطولَةُ امْرَأَةٍ عَرَبيّةٍ

حاصَرَتْ جُيوشُ المُسْلِمينَ دِمَشْقَ، وَفي أَثْناءِ الحِصارِ جُرِحَ أَبانُ بْنُ سَعيدِ بْنُ العاصِ، فأَصابَتْهُ نُشّابَةٌ مَسْمومَةٌ، فَأَحَسَّ بِلَهيبِ السُّمِّ في بَدَنِهِ، فَتَأَخَّرَ وَحَمَلَهُ إِخْوانُهُ إِلى أَنْ أَتَوْا بِهِ إِلى المُعَسْكَرِ، فَقالَ: أَما وَاللهِ لَقَدْ رَزَقَني اللهُ ما كُنْتُ أَتَمَنّاهُ. وَشَخَصَ إِلى السَّماءِ، وَصارَ يُشيرُ بِإِصْبَعَيْهِ: "أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلّا اللهُ، وَأَنَّ مُحمَّداً رَسولُ اللهِ، هَذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلون". فَما اِسْتَتَمَّها حَتّى تُوُفّيَ إِلى رَحْمةِ اللهِ تَعالى.

وَكانَتْ زَوْجَتُهُ بِنْتَ عَمِّهِ، تَزَوَّجَها بِأَجْنادينَ، وَكانَتْ قَريبَةَ العَهْدِ مِنَ العُرْسِ، وَلَمْ يَكُنِ الخِضابُ قَدْ ذَهَبَ عَنْ يَدَيْها، وَكانَتْ مِنْ أَهْلِ الشَّجاعَةِ وَالبَراعَةِ؛ فَلَمّا سَمِعَتْ بِقَتْلِ زَوْجِها، أَتَتْهُ تَتَعَثَّرُ في أَذْيالِها، فَلَمّا نَظَرَتْهُ صَبَرَتْ وَاحْتَسَبَتْ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْها غَيْرُ قَوْلِها: "هَنِئْتَ بِما أُعْطيتَ، وَمَضَيْتَ إِلى جِوارِ رَبِّكَ الَّذي جَمَعَ بَيْنِنا ثُمَّ فَرَّقَ، وَلَأُجاهِدَنَّ حَتّى أَلْحَقَ بِكَ؛ فَإِنّي لَمُتَشَوِّقَةٌ إِلَيْكَ، وَإِنّي قَدْ نَذَرْتُ نَفْسي في سَبيلِ اللهِ، عَسى أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَرْجو أَنْ يَكونَ ذلِكَ عاجِلاً".

فَصَلّى عَلَيْهِ خالِدُ بْنُ الوَليدِ وَدُفِنَ، فَلَمّا غُيِّبَ في التُّرابِ، أَتَتْ إِلى سِلاحِهِ، وَلَحِقَتِ الجَيْشَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُعْلِمَ خالِداً بِذلِكَ، وَقالَتْ: عَلى أَيِّ بابٍ قُتِلَ زَوْجي؟ فَقيلَ لَها: عَلى بابِ (توما) (وهو أحد أبواب مدينة دمشق القديمة، في سوريا)، وَالَّذي قَتَلَهُ صِهْرُ مَلِكِ الرّومِ، وَأَشاروا إِلَيْهِ، فَلَمّا سَمِعَتْ ذلِكَ مِنْهُمْ، حَمَلَتْ عَلَيْهِ إِلى أَنْ قارَبَتْهُ، وَرَمَتْهُ بِنَبْلَةٍ، وَقالَتْ: بِاسْمِ اللهِ وَبَرَكَةِ رَسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ أَطْلَقَتْها، فَأَصابَتْ عَيْنَهُ اليُمْنى، فَسَكَنَتِ النَّبْلَةُ فيها، فَتَقَهْقَرَ إِلى وَرائِهِ صارِخاً، وَهَمَّتْ بِأَنْ تَرْمِيَهُ بِأُخْرى، فَتَبادَرَتْ إِلَيْها الرّومُ يُريدونَ قَتْلَها، وَهَبَّ إِلَيْها قَوْمٌ مِنَ المُسْلِمينَ يُحامونَ عَنْها، فَلَمّا أَمِنَتْ مِنْ شَرِ الأَعْداءِ، أَخَذَتْ تَرْمي بِالنَّبْلِ مِنْ جَديدٍ.

وَلَمّا اشْتَدَّتِ المَعْرَكَةُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَالرّومِ، كانَتْ زَوجَةُ أَبانَ مَعَ جَيْشِ شُرَحْبيلَ بنِ حَسْنَةَ، فَاخْتَلَطَتْ بِهِم، وَقاتَلَتْ مَعَهُم قِتالاً لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، وَكانَتْ تِلْكَ الليلَةُ أَحْسَنَ النّاسِ صَبْراً، وَرَمَتْ بِنِبالِها. وَكانَتْ لا تَقَعُ نِبْلَةٌ مِنْ نِبالِها إِلّا في رَجُلٍ مِنَ الأَعْداءِ إِلى أَنْ قَتَلَتْ مِنَ الروم مَقْتَلَةً عَظيمَةً.

وَبَقِيَتْ مَعَهُم تَخوضُ المَعْرَكَةَ، كَأَحْسَنِ ما يَكُونُ المُجاهِدُ، إِلى أَنْ قَيَّضَ اللهُ النَصْرَ لِلمُسْلِمينَ.

(فُتوحُ الشّامِ:٧٢-٧٩، الواقِدِيُّ) بِتَصَرُّفٍ.

الدَّرْسُ السّادِسُ

الرِّفْقُ بِالحَيَوانِ

كانتِ الإِنْسانِيَّةُ حَتّى العَصْرِ الحَديثِ لا تَرى أَنَّ لِلحَيَوانِ نَصيباً مِنَ الرِّفْقِ، أَوْ حَظّاً مِنَ الرَّحْمَةِ، أَمّا الحَضارَةُ العَرَبِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ فَقَدْ بَرَزَتْ في مَبادِئِها وَوَاقِعِها بِثَوْبٍ مِنَ الرَّحْمَةِ، والشُّعورِ الإِنْسانِيِّ المُرْهَفِ، لَمْ تَلْبَسْهُ حَضارَةٌ مِنْ قَبْلِها، وَلا أُمَّةٌ مِنْ بَعْدِها حَتّى اليَوْمِ في مَجالِ الرِّفْقِ بِالحَيَوانِ والرَّحْمَةِ بِهِ، رَحْمَةٍ تُلْفِتُ النَّظَرَ، وَتَدْعو إِلى العَجَبِ وَالدَّهْشَةِ.

إِنَّ أَوَّلَ ما أَعْلَنَتْهُ الحَضارَةُ الإِسْلامِيَّةُ في مَجالِ الرِّفقِ بِالحَيَوانِ، هُوَ أَنَّ ... الحَيَوانَ عالَمٌ ..... لَهُ خَصائِصُهُ وَطَبائِعُهُ

وَشُعورُهُ؛ قالَ تَعالى: "وما مِنْ دابَّةٍ في الأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ" (الأَنْعام: ٣٨)، فَلَهُ حَقُّ الرِّفْقِ وَالرَّحْمَةِ كَحَقِّ الإِنْسانِ، فَالرَّحْمَةُ بِالحَيَوانِ قَدْ تُدْخِلُ صاحِبَها الجَنَّةَ، وَالقَسْوَةُ عَلَيْهِ قَدْ تُدْخِلُ النّارَ؛ قالَ الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النّارَ في هِرَّةٍ، رَبَطَتْها فَلَمْ تُطْعِمْها، وَلَمْ تَدَعْها تَأْكُلُ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ؛ حَتّى ماتَتْ" (صَحيحُ البُخاريِّ)

إِنَّ إِسْلامَنا الحَنيفَ يُحَرِّمُ المُكْثَ طَويلاً عَلى ظَهْرِ الحَيَوانِ، وَيُحَرِّمُ تَجْويعَهُ وَتَعْريضَهُ لِلضَّعْفِ والهُزالِ، وإِرْهاقَهُ بِالعَمَلِ فَوْقَ طاقَتِهِ، والتَّلَهّي بِهِ في الصَّيْدِ، وَيَنْهى أَيْضاً عَنِ التَّحْريشِ بَيْنَ الحَيَواناتِ. أَمّا إِذا كانَ الحَيَوانُ مِمّا يُؤْكَلُ، فإِنَّ الرَّحْمَةَ بِهِ أَنْ تُحَدَّ الشَّفْرَةُ، وَيُسْقى الماءَ قَبْلَ ذَبْحِهِ، قالَ الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، فإِذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنوا القِتْلَةَ، وَإِذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ" (رَواهُ مُسْلِمٌ).

وَمِنْ مَظاهِرِ رِفْقِ الإِسْلامِ بِالحَيَوانِ: مَنْعُ الصَّيْدِ في مَوْسِمِ التَّكاثُرِ؛ فَقَدْ وَرَدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ: "كُنّا مَعَ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في سَفَرٍ، فَرَأَيْنا حُمَّرَةً، مَعَها فَرْخانِ، فَأَخَذْنا فَرْخَيْها فَجاءَتِ الحُمَّرَةُ تُعَرِّشُ، أَيْ: تُرَفْرِفُ بِجَناحَيْها، فَلَمّا جاءَ رَسولُ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالَ: "مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِها؟ رُدّوا وَلَدَها إِلَيْها". (رَواهُ أَبو داوُدَ).

وَقَدْ قَرَّرَ الفُقَهاءُ المُسْلِمونَ أَنَّ النَّفَقَةَ عَلى الحَيَوانِ واجِبَةٌ عَلى مالِكِهِ، فَإِنِ امْتَنَعَ أُجْبِرَ عَلى بَيْعِهِ، أَو الإِنْفاقِ عَلَيْهِ، أَوْ تَسْييبِهِ (تَرْكِهِ) إِلى مَكانٍ يَجِدُ فيهِ رِزْقَهُ وَمَأْمَنَهُ، أَوْ ذَبْحِهِ إِذا كانَ مِمّا يُؤْكَلُ.

(شَبَكَةُ الأُلوكَةِ الثَّقافِيَّةِ، مُصْطَفى السِّباعي) بِتَصَرُّفٍ.

الدَّرْسُ السّابِعُ

الكَنْزُ الحَقيقِيُّ

(المُؤَلِّفونَ)

الرُّجولَةُ لَيْسَتْ بِالسِّنِ، وَلا بِالجِسْمِ، وَلا بِالمالِ، وَلا بِالجاهِ؛ وَإِنَّما الرُّجولَةُ قُوَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَحْمِلُ صاحِبَها عَلى مَعالي الأُمورِ، قُوَّةٌ تَجْعَلُهُ كَبيراً في صِغَرِهِ، غَنِيّاً في فَقْرِهِ، قَوِيّاً في ضَعْفِهِ، قُوَّةٌ تَحمِلُهُ عَلى أَنْ يُعْطِيَ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ، وَأَنْ يُؤَدِّيَ واجِبَهُ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ حَقَّهُ، وَأَنْ يَعْرِفَ واجِبَهِ نَحْوَ نَفْسِهِ، وَرَبِّهِ، وَبَيْتِهِ، وَدينِهِ، وَأُمَّتِهِ.

إِنَّ الشُّعوبَ وَالأُمَمَ لا تَفْتَقِرُ إِلى الكُنوزِ وَالأَمْوالِ؛ كَيْ تَنْهَضَ مِنْ كَبْوَتِها، وَتَتَحَرَّرَ مِنْ نيرِ العُبودِيَّةِ لِلطُّغاةِ والمُتَجَبِّرينَ، بَلْ تَحْتاجُ إِلى عُقولٍ نَيِّرَةٍ مُفَكِّرَةٍ، وَقُلوبٍ سَليمَةٍ مُتَفَتِّحَةٍ، وَهِمَمٍ جَبّارَةٍ، وَلَنا في أَسْلافِنا خَيْرُ قُدْوَةٍ، وَأَعْظَمُ مِثالٍ.

فَفي دارٍ مِنْ دورِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ جَلَسَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– إِلى جَماعَةٍ مِنْ أَصْحابِهِ، فَقالَ لَهُم: تَمَنَّوْا فَقالَ أَحَدُهُم: أَتَمَنّى لَوْ أَنَّ هذِهِ الدّارَ مَمْلوءَةٌ ذَهَباً، وَفِضَّةً؛ أُنْفِقُها في سَبيلِ اللهِ، ثُمَّ قالَ عُمَرُ: تَمَنَّوْا، فَقالَ رَجُلٌ آخَرُ: أَتَمَنّى لَوْ أَنَّها مَمْلُوءَةٌ لُؤْلُؤاً، وَزَبَرْجَداً، وَجَوْهَراً؛ أُنْفِقُها في سَبيلِ اللهِ، وَأَتَصَدَّقُ بِها: ثُمَّ قالَ: تَمَنَّوْا، فَقالوا: مَا نَدْري ما نَقولُ يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ. فَقالَ عُمَرُ: وَلكِنّي أَتَمَنّى رِجالاً مِثلَ أَبي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرّاحِ، وَمُعاذِ بنِ جَبَلٍ، وَسالِمٍ مَولى أَبي حُذَيْفَةَ؛ فأَسْتَعينُ بِهِمُ عَلى إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ.

فَلِلّهِ ما أَحْكَمَ عُمَرَ! حينَ لَمْ يَتَمَنَّ فِضَةً، وَلا ذَهَباً، وَلا لُؤْلُؤاً، وَلا جَوْهَراً، وَلكِنَّه تَمَنّى رِجالاً تَتَفَتَّحُ عَلى أَيْدِيهِم كُنوزُ الأَرْضِ وَأَبْوابُ السَّماءِ، وَإِنَّ هذِهِ الأُمْنِيَةَ الَّتي تَمَنّاها عُمَرُ تَدُلُّ دَلالَةً واضِحَةً عَلى نَظْرَةٍ ثاقِبَةٍ، وَعَقْلٍ راجِحٍ؛ فَهُوَ يَعْرِفُ ما الَّذي يُعْمِرُ بِهِ الكَوْنُ، وَيُدْرِكُ ما الَّذي تَسْعَدُ بِهِ الدُّنْيا.

إِنَّ أَفْضَلَ ما تُقَدِّمُهُ الدَّوْلَةُ لِأَبْنائِها يَكْمُنُ في تَوْظيفِ أَعْظَمِ الوَسائِلِ وَأَشْرَفِها وَأَنْبَلِها: الإِعْلامِ، وَالمَناهِجِ التَّعْليمِيَّةِ في

المَدارِسِ وَالجامِعاتِ، وَخُطَبِ المَساجِدِ، ... لِتَرْبِيَتِهِمْ عَلى الدّينِ القَويمِ، وَالخُلُقِ المُسْتَقيمِ، وَالعِلْمِ النّافِعِ؛ كَيْ تَصْنَعَ مِنْهُمْ جيلاً فَريداً يَحْمِلُ الأَمانَةَ، وَيُوصِلُ الرِّسالَةَ؛ وَيُحَقِّقُ العَدْلَ وَالحُرِّيَّةَ وَالسَّعادَةَ.

الدَّرْسُ الثّامِنُ

التّاجِرُ وَالمُزارِعُ

في قَرْيَةٍ هادِئَةٍ جَميلَةٍ يَعيشُ أَهْلُها الطَّيِّبونَ في سَلامٍ وَمَحَبَّةٍ وَأَمانٍ، وَلكِنَّ فيهِمْ تاجِراً جَشِعاً عُرِفَ بِطَمَعِهِ وَسَعْيِهِ وَراءَ المالِ بِكُلِّ الطُّرُقِ. وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ جاءَ مُزارِعٌ- في أَشَدِّ الحاجَةِ إِلى بِئْرِ ماءٍ لِيَسْقِيَ أَرْضَهُ وَمَحاصيلَهُ- فَذَهَبَ إِلى التّاجِرِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ شِراءَ بِئْرِ الماءِ مُقابِلَ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ، فَوافَقَ التّاجِرُ، وَتَمَّتِ البَيْعَةُ... وَحينَ جاءَ المُزارِعُ لِيَرْوِيَ أَرْضَهُ مِنَ البِئْرِ، أَسْرَعَ إِلَيْهِ التّاجِرُ مُعْتَرِضاً وَقالَ لَهُ: لَقَدْ بِعْتُكَ البِئْرَ فارِغَةً دونَ الماءِ الَّذي بِداخِلِها، وَإِذا أَرَدْتَ أَنْ تَرْوِيَ مِنْ ماءِ البِئْرِ فَعَلَيْكَ دَفْعُ ثَمَنِ الماءِ.

غَضِبَ المُزارِعُ الطَّيِّبُ غَضَباً شَديداً، وَرَفَضَ دَفْعَ الثَّمَنِ مَرَّةً أُخْرى، وَتَوَجَّهَ مُباشَرَةً إِلى قاضِي المَدينَةِ يَشْتَكي إِلَيْهِ حالَ التّاجِرِ... فَكَّرَ القاضِي العادِلُ وَخَطَرَتْ عَلى بالِهِ فِكْرَةٌ طَريفَةٌ، فَاسْتَدْعى التّاجِرَ؛ لِيَسْتَمِعَ إِلى الطَّرَفَيْنِ، فَقَصَّ كُلٌّ مِنْهُما قِصَّتَهُ مَرَّةً أُخْرى... فَقالَ القاضي لِلتّاجِرِ بِابْتِسامَةٍ: لَقَدْ بِعْتَ البِئْرَ لِلمُزارِعِ دونَ مائِها فَعَلَيْكَ إِخْراجُ الماءِ مِنْها فَوْراً؛ لِأَنَّهُ لا يَحِقُّ لَكَ الاحْتِفاظُ بِمائِكَ فيها، أَوْ عَلَيْكَ دَفْعُ أُجْرَةٍ لِلمُزارِعِ مُقابِلَ احْتِفاظِكَ بِمائِكَ في بِئْرِهِ... عِنْدَها عَرَفَ التّاجِرُ الجَشِعُ أَنَّ خُطَّتَهُ قَدْ فَشِلَتْ، فَتَرَكَ المَحْكَمَةَ وَخَرَجَ مَهْزوماً. وَفازَ المُزارِعُ الطَّيِّبُ عَلى التّاجِرِ بِسَبَبِ إِصْرارِهِ عَلى حَقِّهِ، وَبِفَضْلِ حِكْمَةِ القاضي وَفِطْنَتِهِ وَحُكْمِهِ العادِلِ.

(قِصَصٌ وَعِبَرٌ، الشَّبَكَةُ العَنْكَبوتِيَّةُ)

الدَّرْسُ التّاسِعُ

بِالعِلْمِ نَسْمو

يَكادُ العِلمُ يُلامِسُ تَفاصيلَ الحَياةِ جَميعَها، والوُجودِ؛ لِأَنَّهُ يَرْتَبِطُ بِالمَعْرِفَةِ، والاكْتِشافِ، والاخْتِراعِ. والعِلمُ هُوَ أَنْ يَطَّلِعَ المَرْءُ على مَعارِفِ مَنْ سَبَقوهُ، وَيُجَدِّدَ ما أَنْجَزوهُ، وَيُضيفَ إِليهِ ما أَغْفَلوهُ.

وَالعِلْمُ صَرْحٌ سامِقٌ يَتَشَكَّلُ لَبِنَةً لَبِنَةً، يُضيفُ فيهِ الخَلَفُ عَلى ما قَدَّمَهُ السَّلَفُ، فَهو جُهْدٌ بَشَريٌّ مُشْتَرَكٌ، مَبْنِيٌّ عَلى الصَّبْرِ، والاجْتِهادِ وَحُسْنِ الخُلُقِ.

فَكَمْ مِنْ عالِمٍ مُجْتَهِدٍ مَهَّدَ لِغَيْرِهِ اكْتِشافَ الحَقائِقِ، وابْتِكارَ المُخْتَرَعاتِ المُفيدَةِ الَّتي تَخْدِمُ الإِنْسانَ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ حَياتَهُ عَلى مَرِّ العُصورِ؛ فَها هُوَ (إِسْحاقُ نيوتن) يُفيدُ مِمّا أَنْجَزَهُ الحَسَنُ بنُ الهَيْثَمِ، وَها هو (هارْفي) يُفيدُ مِمّا قَدَّمَهُ ابْنُ النَّفيسِ.

والعالِمُ الَّذي يُسْهِمُ في دَفْعِ مَسيرَةِ العِلْمِ إِلى الأَمامِ يُسَجِّلُ اسْمَهُ بِحُروفٍ مِنْ نورٍ في سِجِلِّ الخالِدينَ، وَيَحْفَظُ مَكانَهُ بَيْنَ العُظَماءِ، وَيَرْفَعُ مَكانَةَ أُمَّتِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، وَيُؤَكِّدُ ذلِكَ قَوْلُ الخالِقِ عَزَّ وَجَلَّ: " يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنْكُم والَّذينَ أوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ ". (المجادلة:١١)

لِذا، يَجِبُ عَلى الدَّوْلَةِ أَنْ تَهْتَمَّ بِالعُلَماءِ، وَتوفِّرَ لَهُم المُتَطَلَّباتِ جَميعَها؛ ليُسْهِموا في رِفْعَةِ شَعْبِهِم، وازْدِهارِ أُمَّتِهِم وَرُقِيِّها. فَهُمْ يَسْتَحِقّونَ كُلَّ تَقْديرٍ واحْتِرامٍ؛ لِأَنَّهُم يَقودونَ الإنْسانِيَّةَ إلى مَرْفأِ المَجْدِ، وَبَرِّ الأمانِ.

(إعْدادُ: عاطِفُ أَبو حَمادَةَ، بِتَصَرُّفٍ)

الدَّرْسُ العاشِرُ

عَبْقَرِيُّ القَرْنِ

ذاتَ يَوْمٍ عادَ طِفْلٌ صَغيرٌ مِنَ المَدْرَسَةِ، وَأَعْطى أُمَّهُ وَرَقَةً صَغيرَةً، قالَ لَها: لَقَدْ أَعْطَتْني المَدْرَسَةُ هذِهِ الوَرَقَةَ الصَّغيرةَ، فَما مُحْتَوى هذِهِ الوَرَقَةِ يا أُمّي؟ امْتَلَأَتْ عُيونُها بِالدُّموعِ بَعْدَ قِراءَتِها، ثُمَّ قالَتْ لِطِفْلِها: يَقولونَ لي: إِنَّ طِفْلَكِ هذا عَبْقَريٌّ، وَإِنَّ هذِهِ المَدْرَسَةَ لا تَسْتَوْعِبُ مِثْلَ هذا الذَّكاءِ، وَنَحْنُ لَيْسَ لَدَيْنا مُدَرِّسونَ أَكْفاءُ لِتَعْليمِهِ؛ لِذا يُرْجى تَعْليمُهُ بِنَفْسِكِ.

أَخَذَتْ أُمُّهُ تُدَرِّسُهُ في البَيْتِ، وَعَمِلَ هُوَ في بَيْعِ الجَرائِدِ في مَحَطَّةِ القِطاراتِ؛ لِمُساعَدَةِ أُمِّهِ، وَرَغْمَ أَنَّهُ كانَ يُعاني مِنْ ضَعْفِ السَّمْعِ، فَقَدِ احْتَوَتْهُ أُمُّهُ بِالحُبِّ والحَنانِ، وَأَخَذَتْ تُعَلِّمُهُ القِراءَةَ والكِتابَةَ وَالعُلومَ، وَعِنْدَما بَلَغَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، كانَ قَدْ دَرَسَ تاريخَ العالِمِ (نيوتن)، والتاريخَ الأَمْريكيَّ، وَرِواياتِ (شِكْسبير) وَغَيْرَها.

وَبَعْدَ وفاةِ أُمِّهِ بِبِضْعِ سِنينَ، أَصْبَحَ واحِداً مِنْ أَعْظَمِ المُخْتَرِعينَ في العالَمِ. وَذاتَ مَرَّةٍ ذَهَبَ إلى خِزانَةِ أُمِّهِ القَديمَةِ، فَوَجَدَ فيها الرِّسالَةَ الَّتي أَرْسَلَتْها المَدْرَسَةُ لِأُمِّهِ في ذلِكَ الحينِ، وَعِنْدَما فَتَحَ الرِّسالَةَ وَجَدَ فيها: "إِنَّ ابْنَكِ هذا ضَعيفُ الفَهْمِ، وَلَنْ نَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يُكْمِلَ دِراسَتَهُ في هذِهِ المَدْرَسَةِ؛ لِذلِكَ فَهُوَ مَطْرودٌ مِنْها".

تَأَثَّرَ كَثيراً وَهُوَ يَقْرَأُ الرِّسالَةَ، وَأَحَسَّ بِعاطِفَةٍ شَديدَةٍ، ثُمَّ كَتَبَ بِمُذَكِّرَتِهِ: "كُنْتُ ضَعيفَ الفَهْمِ، وَلكِنَّ أُمّي حَوَّلَتْني إلى عَبْقَريِّ القَرْنِ".

إِنَّهُ (توماسُ أَديسون)، مُخْتَرِعُ المِصْباحِ الكَهْرُبائِيِّ، الحاصِلُ عَلى أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ بَراءَةِ اخْتِراعٍ.

والغَريبُ أَنَّ سَبَبَ اخْتِراعِهِ لِلمِصْباحِ هُوَ مَرَضُ أُمِّهِ، فَقَدْ كانَتْ بِحاجَةٍ إلى إِجْراءِ عَمَليةٍ جِراحِيةٍ بِسَبَبِ مَرَضِها الشَّديدِ، إِلّا أَنَّ الطَّبيبَ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِجْراءِ العَمَليَّةِ؛ لِعَدَمِ تَوَفُّرِ الضَّوْءِ الكافي لِإِجْراءِ عَمَليَّتِها الدَقيقَةِ، فاضْطَرَّ الطَبيبُ لِانْتِظارِ الصَّباحِ.

مِنْ هُنا تَوَلَّدَ الإِصْرارُ عِنْدَ (أَديسون)؛ لِكَيْ يُضيءَ اللَّيْلَ بِضَوْءٍ مُبْهِرٍ، فانْكَبَّ عَلى تَجارِبِهِ وَمُحاوَلاتِهِ العَديدَةِ مِنْ أَجْلِ تَنْفيذِ فِكْرَتِهِ، حَتّى نَجَحَ في إِنْجازِ هذا الاخْتِراعِ؛ لِذا يَقولُ (أَديسون): "إِنَّ أُمّي هِيَ الَّتي عَلَّمَتْني؛ لِأَنَّها كانَتْ تَحْتَرِمُني وَتَثِقُ بِقُدْراتي وَذَكائي، أَشْعَرَتْني أَنَّني أَهَمُّ شَخْصٍ في الوُجودِ، فَأَصْبَحَ وُجودي ضَروريّاً مِنْ أَجْلِها، وَعاهَدْتُ نَفْسي أَلّا أَخْذُلَها، كَما لَمْ تَخْذُلْني قَطُّ".

هكَذا تَسْتَطيعُ الأُمُّ بَثَّ الثِّقَةِ في نُفوسِ الأَبْناءِ حينَما يَخْذُلُهُمُ العالَمُ... وَهكَذا تَكونُ صِناعَةُ العُظَماءِ.